## أسئلة واحتمالات

**-١-**

دائماً يطاردني هذا السؤال:

-إذا كان توجُّهُ نمطٍ حضاريٍّ ما مضاداً، بمعطياته وقيمه وآلياته، لمصالح عموم البشرية ولارتقائها المتوازن مادياً وروحياً، وبالتالي لنجوع بقائها أساسياً، فإلى أي مدى يمكن لهذا النمط أن يستمر، مهما تكن عناصر القوة التي يمتلكها صانعوه وقادته المستفيدون منه؟!

ويتفرع عن هذا السؤال سؤال آخر أكثر تدقيقاً هو:

-هل التقدم التقني المرتبط بإنتاج الأدوات والسلع والآلات ومختلف الأشياء التي تعطي الوجود الإنساني مظهراً خارجياً بالغ الثراء والغنى، وحقائق داخلية روحية بالغة الفقر، وسيكولوجية بالغة التصدع إلى حد تبديد الشخصية، وقيمية بالغة السطحية والاهتزاز والابتذال، مع ما لا يحصى أو يحصر من المخاوف الفردية والجمعية.. الصغيرة منها والكبيرة، إضافة إلى حقائق شاذة أو بالأحرى مفزعة الشذوذ في التركيب الاجتماعي الإنساني الذي يبيح لبضعة ملايين من البشر المتمولين والمتحكمين أن يسيطروا على مصائر عدة مليارات سيطرة استعبادية تدميرية وشمولية.. هل هذا التقدم هو التقدم الإنساني الفعلي أم أنه النسخة الزائفة لما يجب أن يكون، أو لما كان ينبغي أن يكون؟!

وحين يتمعن المرء في التفصيلات المضمرة التي لا يتسع المقام لذكرها في سياق هذا السؤال، مع إجراء مطابقة مع المعطيات القائمة في الوضع البشري الراهن أفلا يجد نفسه مدفوعاً للتساؤل من جديد عما إذا كان للتاريخ قوانين تحكم مسيرته فعلاً، أم أن حركته هي مجرد تخبط عشوائي يتخذ شكل الصراعات الدموية الدائمة بين القوى الغاشمة المتسلطة على الوجود البشري وبين بقية البشر الذين هم موضوع ذلك التسلط؟!

ولما كان (الظاهر التاريخي) يغري كثيراً بتبني مسألة (التخبط العشوائي) في حركة التطور العام للوجود البشري فإن تعميم اليأس الإنساني –أو عموميته– من جدوى هذا الوجود ومعناه يصبح أشد فظاعة وفظاعة وإرهاقاً، ويغري حتى نخبة (النخب المفكرة) في العالم بالإنجرار وراء القوى الغاشمة بحثاً عن مصالح شخصية آنية وعرضية، فيتم تغييب الحقائق الجوهرية القائمة على وجود قوانين تحكم حركة التاريخ، حقيقة لا ادعاءً نظرياً أو أيديولوجياً، وبقدر ما يتم تعميق هذا التغييب وإبعاد المغيَّب عن أذهان المسَيْطَر عليهم تستمر سيطرة القوى الغاشمة مندفعة نحو اتخاذ أشد أبعادها شراسة وشيطانية.

ولكن القوانين المذكورة لا تشتغل بذاتها كمجردات، وبالتالي هي ليست أدوات لما يسمى (الحتمية التاريخية) بل هي تتمظهر في (الفعل البشري) العام كصراع للإرادات المتناقضة، حيث إن كل لحظة تاريخية ماهي إلا محصلة لصراع مالا يُحصى من الإرادات –على حد تعبير أنجلز الذي ما عاد أحد يذكره! – وحيث إن (الإرادة)، أي نسق الفعل الخاص بمجموعة أو جملة مجموعات بشرية، تكون مؤثرة بقدر ما تكون واعية لذاتها ولنقيضها في آن معاً، وبقدر ما تمتلك أيضاً من عناصر القوة

الرادعة أو الفاعلة في السياق الديالكتيكي للصراع الذي لا يمكنه التوقف.

وهنا نجد أن (العشوائية) سابقة الذكر ليست إلا مظهر انتصار إرادة (القوى الغاشمة) في عملية صراعها ضد القوى المناقضة لها داخل ذلك السياق الديالكتيكي ذاته. لكن التيئيس واليأس يسبغان صفة العشوائية تلك على حركة التاريخ باعتبار أولهما فعلاً تمارسه القوى المنتصرة، وثانيهما رد فعل يتقبله عقل القوى المهزومة كتعبير عن الاعتراف بالعجز في حضيض الهزيمة.

على أن السؤال في صيغته التي بدأنا بها، أو في صيغته التفريعية اللاحقة، يظل قائماً. أما الرد فإنه ببساطة: لا يمكن للنمط الحضاري المضاد المذكور في الصيغة الأولى أن يستمر... وليس التقدم التقني القائم على تدمير الطبيعة من جهة وروح الإنسان من جهة أخرى هو التقدم الحقيقي، وإنما هو الصورة الزائفة لمعنى التقدم.

**-٢-**

كثيرون اليوم هم المتحمسون –من العرب طبعاً، وهم من يهموننا مباشرة– للتقدم التقني الحاصل، والمتواتر التطوير، في مراكز الهيمنة العالمية، وفي المركز القائد– الآن– خصوصاً، أعني الولايات المتحدة الأميركية، وحماسهم الذي لا يخلو من اندهاش طفولي وساذج، لا يكتفي بالتعامي عن طبيعة هذا التقدم ووظائفه ومستجراته، بل إنهم (يفبركون) آمالاً مصطنعة يعلقونها عليه، مسوغين بذلك تقبّلهم لوظائفه التي لم يبخل منظرو الهيمنة بالإعلان عنها بغطرسة تنظيرية لا تستخف بقوانين حركة

التاريخ وحسب، بل هي أساساً تستخف بالوجود الإنساني ذاته على هذا الكوكب، ناهيك عن الاستخفاف بأي قيم ما عدا قيم السوق.. ويالها من قيم!

إن القول: العالم يتقدم بسرعة مذهلة، هو قول يستجر سؤالاً يستحق التأمل العميق باستنفار وجداني صادق، مع النفس على الأقل: يتقدم نحو ماذا، وإلى أين؟!

-٣-

وفقاً لقوانين حركة التاريخ، أو حتى لنظرية توينبي في التحدي والاستجابة، ليست هناك ديمومة لهيمنة ولا لنظام مهيمن، ولا لقيادة مركز قائد للهيمنة.. بصرف النظر عن (وسائل القوة) المستخدمة لجعل تلك الديمومة واقعاً ثابتاً.

والوضع البشري الراهن ليس –في اعتقادي– أكثر من وضع انتقالي إجمالي على المستوى الكلي الراهن. وهذا الوضع الانتقالي لا يمكن له أن يطول حتى لبضعة عقود، وذلك بسبب التسارع الشديد في وتائر إنتاج عناصر التغير وفواعله، الأمر الذي يسرع حركة التاريخ ذاتها بحكم انعكاساته على أوضاع القوى البشرية المختلفة، والمتناقضة، والمتصارعة علناً أو ضمنياً.

وما يمكن استنتاجه بسهولة من ذلك هو أن الاستقطاب الأحادي القائم محكوم عليه ألا يبقى كذلك في الحاصل الأخير، وبالتالي فإن قيادة أميركا لمجريات حركة الأوضاع الدولية الآن هي قيادة مؤقتة وعارضة. فما الذي سيحدث حين ستنحسر هذه القيادة أو تزول؟!

إن كثيرين من الأميركيين المفعمين بالغطرسة –وقد يكون

بريجنسكي من أبرزهم- يزعمون أن العالم ستسوده الفوضى المرعبة في حال حدوث ذلك! وبالطبع، إنها لطريقة فكهة -على مرارتها- في تهديد البشرية.. وإنه لأسلوب ابتزاز طريف -على رخصه- لهذه البشرية التي لم يبق لدى غالبية شعوبها ما تخسره إلا وجودها البيولوجي ذاته!

على أن ثمة ماهو أسوأ من زوال قيادة أميركا للعالم بالنسبة لأميركا ذاتها.. وقد ورد مرة في كتابات أحد أهم الكتاب المستقبليين الأميركيين: ألفين توفلر، في كتابه (الموجة الثالثة) الصادر عام ١٩٨٠.

لقد تنبأ توفلر في ذلك الكتاب بانهيار الاتحاد السوفييتي في التوقيت التي انهار فيه... غير أنه أيضاً تنبأ بانقسام الولايات المتحدة إلى خمس دول على الأقل خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وبالطبع بنى توفلر تنبؤه هذا على استقراءات هي -بالتأكيد- أكثر دقة، وأقل عاطفية، من تلك التي بنى عليها تنبؤه بانهيار الاتحاد السوفييتي. وهنا يبرز سؤالان اثنان مترابطان وموضوعيان:

**أولهما:** هو هل تنبؤ توفلر هذا قابل للتحقق، خصوصاً وأن الأوضاع المجتمعية الأميركية الداخلية ليس عطبها خافياً على أحد؟!

**ثانيهما:** هو ما الذي يمكن أن يحدث للعالم إن تحقق هذا التنبؤ، وفق منطق المصلحة الإنسانية إجمالاً لا وفق منطق التخويف والتهديد الذي يستخدمه بريجنسكي؟!

إن الأمر برمته ليستحق التوقف عنده والتأمل فيه، ولو قليلاً، على أي حال!